

## 84124 - بين النفاق والمداراة

### السؤال

1. أود معرفة الخط الفاصل بين النفاق والمجاملة ؛ ذلك أنني ألمس في الكثير من الأحيان ازدواجية في سلوك الناس وتصرفاتهم تبعاً للمصلحة والأهواء ، ويقال : إن الأمر مجرد مجاملة فهل هذا صحيح ؟

2. وهل يمكن أن يشوب الصداقة الحقة بعض النفاق ؛ ذلك أن لي صديقة لم تحمل لي من الود ما كنت اعتقده ، كانت لها مكانة في قلبي لا ينازعها عليها أحد ، واكتشفت أخيراً أن مكانتي لديها لا تساوي شيئاً مطلقاً ، وسلوكها معي لسنوات تحكمه الأقنعة الزائفة ، كنت أعتقد ، وكان الكل يجزم قطعاً ، أن الصداقة بيننا قوية ، وإلى الآن لست أدري كيف لي أن أتبرأ من هذه الصداقة بعد أن علمت بحقيقتها .

3. فهل سلوك هذه الصديقة يعد نفاقاً ؟

4. وما جزاء نفاق الأصدقاء ؟

### الإجابة المفصلة

الحمد لله.

كثيراً ما يخلط بعض الناس بين مفاهيم النفاق والمداراة والمداهنة ، وسبب ذلك غياب معاني الأخوة والصحبة الصادقة في الذهن والواقع ، فلم تعد قلوبهم تفرق بين الحق والباطل ، وبين الإحسان والإساءة .  
أولاً :

إذا أُطلق لفظ النفاق فإنه يستوحي معاني الشر كلها ، ولم يكن النفاق يوماً محموداً ولو من وجه ما ، ويعرّفه علماء السلوك بأنه إظهار الخير للتوصل إلى الشر المضمّر .

فالنفاق لا يبتغي الخير أبداً ، وإنما يسعى للإضرار بالناس وخيانتهم وجلب الشر لهم ، ويتوصل إلى ذلك بإظهار الخير والصلاح ، ويلبس لبوس الحب والمودة .

يقول سبحانه وتعالى في التحذير من صحبة المنافقين :

( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مَن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنَتُمْ قَدَ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِن أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ) آل عمران/118-119 .  
وهكذا كل من يصاحب الناس فيظهر لهم الخير والمودة ، وفي حقيقة أمره إنما يسعى في أذاهم ، ويتمنى النيل منهم ، ويطلب الشر لهم .

ثانياً :

أما المُدَارِي ( وهو المُجَامِلُ أيضا ) فلا يُضمِرُ الشر لأحد ، ولا يسعى في أذية أحد في ظاهر ولا في باطن ، ولكنه قد يظهر المحبة والمودة والبشر وحسن المعاملة ليتألف قلب صاحب الخلق السيء ، أو ليدفع أذاه عنه وعن غيره من الناس ، ولكن دون أن يوافق على باطله ، أو يعاونه عليه بالقول أو بالفعل .  
قال ابن مفلح الحنبلي - رحمه الله - :

وقيل لابن عقيل في فنونه : أسمع وصية الله عز وجل ( ادْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ) ، وأسمع الناس يعدون من يظهر خلاف ما يبطن منافقا ، فكيف لي بطاعة الله تعالى والتخلص من النفاق ؟ .  
فقال ابن عقيل : " النفاق هو : إظهار الجميل ، وإبطان القبيح ، وإضممار الشر مع إظهار الخير لإيقاع الشر ، والذي تضمنته الآية : إظهار الحسن في مقابلة القبيح لاستدعاء الحسن " .

فخرج من هذه الجملة أن النفاق إبطان الشر وإظهار الخير لإيقاع الشر المضممر ، ومن أظهر الجميل والحسن في مقابلة القبيح ليزول الشر : فليس بمنافق ، لكنه يستصلح ، ألا تسمع إلى قوله سبحانه وتعالى ( فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ) ، فهذا اكتساب استمالة ، ودفع عداوة ، وإطفاء لنيران الحقائد ، واستنماء الود ، وإصلاح العقائد ، فهذا طب المودات ، واكتساب الرجال . " الآداب الشرعية " ( 1 / 50 ، 51 ) .

ولذلك كانت المداراة من الأخلاق الحسنة الفاضلة ، وذكر العلماء فيها من الآثار والأقوال الشيء الكثير .

قال ابن بطال رحمه الله : المداراة من أخلاق المؤمنين ، وهي خفض الجناح للناس ، ولين الكلمة ، وترك الإغلاظ لهم في القول ، وذلك من أقوى أسباب الألفة . "

فتح الباري " ( 10 / 528 )

وقد أنشأ البخاري رحمه الله في صحيحه بابا بعنوان : ( باب المداراة مع الناس ) وقال فيه :

" وَيُذَكَّرُ عَنْ أَبِي الدرداء : إِنَّا لَنُكْشِرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَإِنَّا لَنَلْعَنُهُمْ " .

ومعنى " لنكشر " : من الكشر ، وهو ظهور الأسنان ، وأكثر ما يكون عند الضحك ، وهو المراد هنا .

وأسند في هذا الباب حديث عائشة رضي الله عنها :

( أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَقَالَ : ائْذِنُوا لَهُ فَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ أَوْ بِنْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ . فَلَمَّا دَخَلَ الْأَنْ لَهُ الْكَلَامَ . فَقُلْتُ لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قُلْتَ مَا قُلْتَ ثُمَّ أَلْنْتَ لَهُ فِي الْقَوْلِ ؟ فَقَالَ : أَيُّ عَائِشَةٍ ! إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ تَرَكَهُ أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ )

قال ابن مفلح الحنبلي - رحمه الله - :

وقول أبي الدرداء هذا ليس فيه موافقة على محرّم ، ولا في كلام ، وإنما فيه طلاقة الوجه خاصة للمصلحة وهو معنى ما في الصحيحين وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها : يَا عَائِشَةُ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ وَدَعَهُ النَّاسُ أَوْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ .

قَالَ فِي " شَرْحِ مُسْلِمٍ " وَغَيْرِهِ : " فِيهِ مَدَارَاةٌ مِنْ يَتَقَى فُحْشَهُ ، وَلَمْ يَمْدَحْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا أَثْنَى عَلَيْهِ فِي وَجْهِهِ ، وَلَا فِي قَفَاهُ ، إِنَّمَا تَأَلَّفَهُ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا مَعَ لِينِ الْكَلَامِ " .

وقد ذكر ابن عبد البر كلام أبي الدرداء في فضل حسن الخلق .

" الآداب الشرعية " ( 1 / 50 ) .

وقد كتب أهل العلم فصولاً في " المداراة " حتى أفرد ابن أبي الدنيا جزءً بعنوان " مداراة الناس " ، وكان مما أسنده فيه في ( ص / 48 و 50 ) :

عن حميد بن هلال قال : أدركتُ الناس يُعَدُّونَ المداراةَ صدقةً تُخْرَجُ فيما بينهم .

وعن الحسن قال : التودد إلى الناس نصف العقل " . انتهى .

وقال حنبل إنه سمع أبا عبد الله - أي : أحمد بن حنبل - يقول :

والناس يحتاجون إلى مداراة ورفق ، وأمر بمعروف بلا غلظة ، إلا رجل معلن بالفسق فقد وجب عليك نهيهِ وإعلامه .

" الآداب الشرعية " ( 1 / 191 ) .

وسئل الشيخ ابن باز - رحمه الله - :

في بعض الظروف تقتضي المجاملة بأن لا نقول الحقيقة ، فهل يعتبر هذا نوعاً من الكذب ؟

فأجاب :

هذا فيه تفصيل : فإن كانت المجاملة يترتب عليها جحد حق أو إثبات باطل : لم تجز هذه المجاملة ، أما إن كانت المجاملة لا

يترتب عليها شيء من الباطل ، إنما هي كلمات طيبة فيها إجمال ، ولا تتضمن شهادة بغير حق لأحد ، ولا إسقاط حق لأحد :

فلا أعلم حرجاً في ذلك .

" مجموع فتاوى الشيخ ابن باز " ( 5 / 280 ) .

ثالثاً :

ومن المهم أيضاً التفريق بين المداراة المحمودة ، وبين المداهنة المذمومة ، فقد يخلط الناس بينهما في حمأة اختلاط المفاهيم

والأخلاق في هذه الأزمان .

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - :

وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط ؛ لأن المداراة مندوبٌ إليها ، والمداهنة محرمة ، والفرق أن المداهنة من الدهان وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه ، وفسرها العلماء بأنها : معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه ، والمداراة : هي الرفق بالجاهل في التعليم ، وبالفاسق في النهي عن فعله ، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يُظهر ما هو فيه ، والإنكار عليه بلطف القول والفعل ، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك .  
" فتح الباري " ( 10 / 528 ) .

رابعاً :

كثير من الأصحاب والأصدقاء - ويكثر ذلك في معشر النساء - يخطؤون في فهم الوجه الصحيح لصحبتهم ، فينحون نحو المغالاة الظاهرة التي تدفعهم إلى التعلق الشديد ، في حين يكون الطرف المقابل لا يرى كل تلك المعاني المبالغة ، بل يقصد صحبة طيبة متزنة اقتضاها الحال والمقام ، وحينئذ يصد من كان يُعَلِّقُ على تلك الصحبة آمالاً لا تكاد تحملها الجبال ، فنحن بحاجة إلى ترشيد المودة التي قد تأسر قلوبنا تجاه أناس نحبهم ، كي لا نُفاجأ يوماً ، فنظن قصورا من المعاني هدمت ، وهي لم تكن مبنيةً يوماً .

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " لا يكن حُبُّكَ كَلْفًا ولا بغضك تَلْفًا " .

وفي المقابل نحن بحاجة إلى تعميق معاني الأخوة ، الأخوة التي تقتضي الوفاء والصدق والإخلاص ، وترفع التكلفة والمجاملة والمداراة . وقديما قالوا : " إِذَا صَحَّتِ الْمَوَدَّةُ سَقَطَ التَّكَلُّفُ " .  
جاء في " لسان العرب " ( 11 / 123 ) :

" وجامل الرجل مُجَامَلَةٌ : لم يُصنَفِ الإِخَاءَ ، وماسحَه بالجميل " انتهى .

ولا شك أن مثل هذه المجاملة مذمومة ، إذ ليس لها محل في سياق الأخوة والصحبة الصالحة ، وإن وقعت المجاملة أحيانا بين الأصحاب فإنما تكون بحسب المقام فقط ، درءا لفتنة أو حفظا لمودة ، أما أن تكون المجاملة شعار تلك الصداقة ، فذلك تشويه لجميع معاني الأخوة الصادقة .

قال علي رضي الله عنه : شر الأصدقاء من تكلف لك ، ومن أحوجك إلى مداراة ، وألجأك إلى اعتذار .

وقيل لبعضهم : من نصحب ؟ قال : من يرفع عنك ثقل التكلف ، وتسقط بينك وبينه مؤنة التحفظ .

وكان جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما يقول : أثقل إخواني علي من يتكلف لي وأتحفظ منه . " إحياء علوم الدين " ( 2 / 181 ) .

والله أعلم

